المشكينو

أحمد خلف

هذا يوم آخر من أيام الفراق والهجران، اخترت فيه العودة إلى بلدتي المشكينو. هذا عهد جديد يا بلدتي ليس كآخر عهد من العهود الماضية، صخرة تنقلب أو تفاحة تتدحرج من جبل. عهدٌ تركتُ فيه مدناً تجثو باكية أمام زوبعتها، لينطوي شجر البيوت منحنياً على حافات الحيطان، متكسراً تحت ضغط الصيحة المدوية، الصيحة الأولى. كل شيء تبدل بالسرعة المباغتة، هواء لاهبٌ وقصب ناشف وعيون تحدق في فراغ، أجساد غضّة تيبّست ورؤوس ثابتة لا تدري إلى أي الجهات تستدير، كأن الطير حطّ عليها منذ زمن سحيق، لفّهُ غبار العالم الفاني، زمن آدم ونوح وثمود. عهد يجرّ خلفه عهداً آخر. ترى أين تختفي هذه العهود؟ يا أيها الواحد الأحد، يا أيها الجبار المتكبّر، هل انتهى عهد الفراق والبعاد والجفوة المؤلمة؟ أهي تفاحتك المغبرة أسقطتها لتتبعَ خطواتي؟ أما انتهت خبطة السحر والشعوذة ولصوص آخر الليل: الخناجر الفضّية والصدئة، وسكاكين المطابخ ومعاول الهدم، خبطة سُجّلت في عهد الصفحة المنسية، إذ تستفيق اليوم جرذان المشاقي والصراصير ودودة الأرض والكلاب السائبة وشهود الزور وملفقو الحكايات المنعوتون بالشهود الأزليّين. غربان الخطيئة الأولى، بالحري كلهم اندفعوا مذعورين تحت وابل من مطر يهطل بغزارة وبرد يثلج القلوب والعظام، تدافعوا جزعين فوق الصفحة الرمادية لورق التوت والتين والعنب الحامض، يتدافعون بالمناكب والأكتاف والصدور والمؤخرات بحثاً عن الخلاص الوثني، يَجرّون وراءهم خراطيم الذعر لائذين بما مَنّت عليهم حكمة الأولين: انجُ سعد فقد هلكَ سعيد. ترى هل أصابهم الخرس لا يتفوّهون بحرفٍ أو كلمة؟ أعرفهم: هم البشر أهلي والناس هنا ناسي.. افرنقعوا إذن، أهي التفاحة تسقط من عليين فتنفجر بعمود من دخان وغبار وسكاكين؟.. لُذتُ بركن قصيّ من بيوت البلدة، فاجأني صوت غريب ناداني: «انهضْ وإلاّ جرى لك ما جرى لعامة الناس». خشيت أن تكون الملائكة أو الشياطين قد أنهت عبثها المرحِ بالبلدة لحينٍ من الزمن. تحركتْ خطاي تجاه السوق، أتذكره غاصّاً بالناس والحركة، قُلت في السوق يمكن للمرء أن يبدّد وحدته ويخفّف من ثقل محنته ويجد السائلُ جواباً شافياً لسؤاله قبل أن يجف السؤال ويموت.. لا بشر هناك. كائنات مسحورة تتحرك هامسة، كأنها أُصيبت بالداء أو الوباء (قيل إن البلدة ينتابها الذهول أو الصداع المزمن ولا أحد يعرف كنه هذا الوباء) رأيتهم، أيدٍ تلوح لبعضها ورؤوس تومئ لأخرى، عيون ثابتة النظرة (أهي عيون أم حبات خرز رخيص طَرّزتها الملامة لتغدو بين ليلة وضحاها مجرد أشباح تذوب في حركتها؟ من يستطيع القبض على أجساد تنزلق من بين الأصابع كالزبد المر؟) يا ربّ السماء، يا رب المشكينو، يا أيها الواحد الأحد، يا أيها القهّار المتعالي، ماذا أفعل بهؤلاء الناس؟ سأحصرهم في زاوية لأستعلمهم عما يجري لهم وماذا حل بألسنتهم. كانوا صامتين قاطنين. هاهي ذي بلدة التماثيل الشمعية الخالية من أي صوت أو حركة.. ايه، تفاحة الثعلب المغبرة إن لم يكن هذا ولا ذاك، فمِن الجائز أني سأموت من الغيظ والهجران. أهذا عتاب أم عقاب؟ من يدلّني على مبتغاي وسط اقتباس الروح في الجسد الفاني؟ قيل إن أبي هو الذي لجّ بالسؤال عني وألحّ بطلبي والتمس من الأهل والأصدقاء (أصدقاء أبي، إذ ليس لي أصدقاء البتّة) مجيئي للتعرف على أحوالي وما جرى لي من خطوب.. كان أبي يعلم علم اليقين ألّا أحد لي في البلاد البعيدة عنه، البلاد التي لم يرها من قبل، كان يقول عنها: «مدن البلاد البعيدة معلّقة في الهواء بين السماء والأرض على ارتفاع قامة رجل متوسط الطول، مدنٌ تُضاء بالمصابيح الملوّنة، تخيّلوها إذن، تلك المدن ترفل بالنعيم، مدنٌ راقصة مع أضواء النهر كالمرأة الفارعة المسحورة، الداخِلُ إليها يضيع منه عددُ السنين، لا يعلم كم أمضى من أعوام ودهور، ليست بيوتُها من حجر أو آجرّ، بل من ضوء المصابيح المنعّمة بالنور الأبدي، تغتسل بماء فرات». في التاسعة عشرة من عمري قفزت إلى أول مركب شراعي لحمل المحاصيل الموسمية ليرحل بنا عبر شط السماوة/ البصرة. أيّ شيء لم يكن ضدنا، إذ المركب الشراعي يبدو ثملاً جاءت ريح عاتية تهدر بحر أعصابنا. تعبنا وامتلأت رئتاي برائحة غبار المحاصيل. لكني تجالدتُ، عبقاً كنتُ بقوتي ويفاعتي والمركب يميل بنا يميناً ونحو الشمال. كنتُ رابط الجأش معانداً سكاكين الريح ورماحها، حملت معي تسعة عشر عاماً كي أُغادر المشكينو، تاركاً أمي وأبي وحيدين. ولم ألتفت إلى الوراء أبداً (أمي

عافت أبي إلى رجل آخر وتزوجته). لم أترك ورائي أثراً أو وصيّة، والإفلاس لم يدع لي فرصة كي أوصي بشيء لأحد، أي أحد. ولما وضعت الحرب أوزارها وانتهى ضجيجها وعجاجها، قلت الآن حان الوقت لأذهب منتشياً بفرحي مسحوراً باللقاء المنعم بدفء القلوب وحرارة الأيدي. إلى المشكينو (يا غريب اذكُرْ أهلك وناسك) جئت، ها هي المشكينو تغصّ بصمتها ووجلها، وقد ازدادت الخطوط على وجهها وتغضّنت جبهتها وضاق صدرها لمّا رأتني أدور في أزقّتها أسائل الناس عن بيت أبي (هل مات أبي حقاً وهل تزوجت أمي من رجل آخر قبل موته، أم بعد مماته؟ كيف لي أن أعرف ما لم أعثر لأحدِهما على أثر، أي أثر وأي أحد). كلكلَ الليلُ وأناخ على قلبي.

هل أنام في زريبة؟ ليست الزرائب غريبة على أمثالي. تهت طويلاً في الزرائب، لم أسند رأسي إلى وسادة ولم أتمدد على فراش وثير. هل قلت فراشاً وثيراً؟ ما معنى أن يكون الفراش وثيراً؟ شكله وهيأته ومداه، كسله وارتخاء مفاصله ومبتغاه؟ أهو مبتغاي أم نقيضه في الهوان أم الأمان الرضيّ المُعافى بكل الكلمات؟.. أيه وجع الكلمات، حكاياتي ومفازات البحث عن مأوى يغري وينعش ذكرى بيوت الطين والزرائب الغاصّة بمزابل الروث والذباب وفئران آبار الملح والأرض السبخة، تهميمة شفاه تندب صباح مساء: «الله كريم يا حبيبي.. الله موجود يا بني..». اعتراف بالذنب يُثقل كاهل الجسد المرهف المطوّق بتلك الرجرجة اللعينة لتفاحة الثعلب المغبرة. ذهبت جرياً وخبباً، وكنت أبحث عن مأوى لليلة واحدة. سألت أحد المارة قرب السوق، قال لي: «هذه بلدة لا مكان فيها لغريب.. كان مُحدّثي شيخاً ظل يتفرّس في وجهي باذلاً جهده في التعرف على ملامحي.. قلت: «معاذ الله لستُ غريباً عن المشكينو. ساعدْني على منام هذه الليلة فقط».

قال الشيخ: أتريد الذهاب معي؟

قلت له: سأكون شاكراً لك يا عم.

ـ أنا أدعى حمزة الغريب، لو أردت مناداتي.

أخذتني الدهشة وأنا ألفظ اسمه كاملاً: حمزة الغريب. كيف جاءت المصادفة ويكون الاسم كما ادّعى؟ كنا نسير جنباً إلى جنب وسمعته يتحدث، وربّما خيل إليّ أني أسمع صوتاً بشرياً يحاول أن يجعلني أسمع ما يقول، ولو كان مجرد صوت بعيد يختلط بعشرات الأصوات: «كنت طفلاً تستطيع أن تثق بما أقول، قلْ صبياً، ولم تكن هناك مدارس بل كانت الصحراء المحيطة بالبلدة تنسحب شيئاً فشيئاً ويحلّ بدلاً منها أراضٍ للمحاصيل، والسفن تنقل ما تجود بهِ الأرض، فتغصّ المراكب الشراعية بالمحاصيل. لكنّها الحرب جاءت وانتهى كل شيء، أليس هذا عجباً يا بنيّ؟ تصور، كانت الأزقّة تغصّ بالناس والمارة لأن كل شيء يبدو متفقاً عليه. كان الناس يسيرون وأعناقهم تبدو جدّ قصيرة وربما مربوطة إلى شيء ثابت في الأرض لأن الحرب جاءت وانتهى كل شيء. ماتت أمي وتبعها أبي وبقيت وحيداً في هذه البلدة، لا شغل لي غير مراقبة ما يجري من حولي وأنا خائف على البلدة لئلا تنهار يا بني، وأنا أراها تدخل جحورها في أول المساء، تسبقها مئات الفئران النهمة الأكول، المعروفة بفئران آبار الملح.. فئران الصحراء ألا تعرفها يا بنيّ؟ إن أسنانها تقرض الحديد الصلب. قيل إن الله وهبها كل خبث الأرض وحيلة الصحراء. تصوّر يا بنيّ، تخافها الذئاب والثعالب، حتى قطط البيوت الهاجعة تخاف من فئران الصحراء. قيل إنها تسدّ منافذ البيوت فلا تدع أحداً يدخل أو يخرج. بل ربما كان ذلك الموت السريع بدافع من تكاثرها وتلاحق أنفاسها بعد منتصف الليل. ما الذي يفعله الناس؟ فالحرب جاءت وانتهى كل شيء يا بنيّ. لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً. فئران شرهة أكول، ربما، مسعورة كالكلاب».

كان العجوز ناشف الوجه واللّسان. وكان الصّوت يأتيني من بعيد متعباً يخرج إلى فضاء مهجور، لاهثاً، والعجوز يجري لا يلوي على شيء.. مرات يسبقني فيها بخطوات، وأخرى أتركه ورائي لأعود إليه وأتوقف عن المسير برهة لأدعه يلحق بي، إذْ كيف ادع هشاشة الماضي تتدحرج خلفي. اسمعه يقول: «لم أتناولْ طعامي منذ الصباح، هيّا اسرعْ فبيتي ليس ببعيد من هنا. هل قلتَ إنك لست غريباً عن المشكينو؟ كيف يحدث هذا؟ ماذا تعرف عن هذه البلدة التي لا شبيه لها؟. قلْ لي بصراحة يا بني: أأنت أسير حرب انتزَع قيوده؟ أم تراك سجيناً هارباً من سجنه؟ ألا تفزعك حالة البلدة وصمتها المريب؟ وتقول إنك لست غريباً عنها؟ يا اسم الله ماذا يجري من حولك يا حمزة الغريب؟ أنت نائم ولا تدري بحال شيء؟.. لا يهمّ.. لا يهمّ. أنت ضيفي الليلة وسأكرمك لئلا يقال حمزة الغريب لم يحسن إكرام ضيفه. تعال يا بنيّ، واضح أنك وحيد مثلي. هذه المشكينو لا رجاء منها. كلما فكرت في مغادرتها، وجدتني مشدوداً إلى ترابها بحبال لا يعلم إلا الله قوتها. هيا يا بني، امضِ ولا تتردّد. هل تخشى شيئاً؟ هل يتبعك أحد؟ من تراه يطاردك طوال النهار؟».

ها هي ذي البلدة في الليل تستسلم إلى نومها. وأغلب الظن أن ذاكرتها مشحونة بالرؤى والهواجس فتقلق راحتها، لأن ما أسمعهُ كان أنيناً وربما آلاماً تأتيها من وجعٍ مزمن، كأنها تعاني ساعات المخاض. قطار أرعن يتخبط في مروره البطيء على جسدها فتقاوم ذلك الضغط المهول الذي وجدت نفسها رازحةً تحت ثقله تئنّ. أتراها تتلذّذ في وبائها الذي أصيبت به رغماً عنها؟ أيه مشكينو، أيّ الأسماء يليق بهذا التوجس المريب الدائم إذ ينخر العظام حتى النخاع ليحيلها إلى رماد؟. دفع الشيخ باباً خشبياً تعالى صريره.

ليس ثمة عابر فيما حولنا، قال لي الشيخ: «ادخل يا عبد الله، ادخل يا بني، بيتي، فأنا أعيش وحدي في هذا البيت، أصنع طعامي بيدي مرات كثيرة، ومرات تأتي امرأة لتصنعه لي أو لتتفقدني. تعال، عندنا خبز ولبن وقليل من اللحم يكفينا. ليست شهيتي اليوم على أحسن حال، سأعدّ لك الشاي».. سحرتني وحدته وعزلته. أليس هذا مرتجاي من مقتفي أثري؟ أليس الأمانَ التامّ، السلامَ النقيّ لا الملوث، بل الأمان البعيد عن الظلام، أعني الأمان القريب من القلب؟ ترى هل القلب مسلّة أحزان؟ إذ كل شيء ينبغي أن يسير برفق متهادياً ومتريثاً، لا خوف يتربّصني على سفح أيامي. أين أيامي؟ هل أضعتها في التوجّس المريب؟ ايه تفاحة الثعلب المغبرة،

التراشق بالشهب

١ ـ «حرائق الزيت»

قبلَ قرونٍ متُّ
ثم رجعت لأسكن هذي الأرض
روحي حائرة
كملاكٍ ضيّع في الرحلة نحوَ الله حقائبه
وعلى الأفقِ الكالح تومض عيني مثل فنار
هذا بيتي
ما أبقت حملات الغازين سوى بابٍ مكسور
تلكَ حقولي
أشواك تنمو من أجلِ مسيحٍ آخر
وعلىٰ الشمس الرخوة تغطّس راحة كفّي
حيث تنقّلتُ أرىٰ أبنائي
وصناديقي عبثَ الدود بها واللصُّ
كَبُرَ الحزنُ كأورام السرطان
واعتصرَ البدرُ علىٰ الشجرِ اليابسِ أثوابَ الغرباء

* * *

لستُ غريباً عن هذا الوحل
عجنت منه يداي شعوباً وحضارات
وشممتُ له ـ حينَ ذُلِلْتُ ـ بأثواب السّادة رائحة عفنة
قبلَ قرونٍ متُّ
ثم رجعت لأسكن هذي الأرض
لست أرىٰ نفسي بعدَ العوْدِ غريباً

كان جدارُ الموتِ زجاجاً
والكونان علىٰ مبعدة الأنفاس من الآخر
وإذا اشتقتُ
فبينَ الموتىٰ والأحياء زيارات مجّانية

* * *

أضحكُ،
والقمل بأثوابي
أغفو،
فكأنّي لم أشبعْ موتاً
أتطلّعُ في المرآة
فتطلق في وجهي آلاف الماسورات قذائفها
لا أخشىٰ شيئاً وبحلقي مازال مذاق المرِّ
لكنْ ما يقلقني
ألّا أعثر ـ في الأرض المحروقة ـ عن سقف

* * *

قبلَ قرونٍ متُّ
وعلىٰ البركان الهائجِ طافت روحي
سرتُ مع الأجيال من النشوة بالنّصرِ
وحتىٰ ذُلّ الأسر
كان المطر الأسود يصبغ قرصَ الشّمس
وصخور الذّلة تحني القامات

* * *

هل أيامي نعشٌ أم صندوق أسرار؟ أيّ الأسماء يليق بهذا التوجّس إذن؟ إن لم يكن هذا ولا ذاك فمن الجائز أني سأموت من الترقّب والدناءة المستترة.

قلت للعجوز: «ألا يسكن أحد سواك في هذا البيت؟». حكّ العجوز كتفيه في جدار الحجرة وتأملني برهة من الوقت. قال: «لا أحد. فقط امرأة تأتي لزيارتي مرة واحدة كل يوم، تأتي لتتفقدني أو تجلب لي طعاماً وتمضي». أشعل حمزة الغريب نار موقده ودفّأ يديه. سرت حرارة طيبة في المكان. انتعش الجسد ولان الخاطر وتوضّحت معالم الوجه. أنف مستقيم ووجه غزاهُ شحوبُ مَرَضي، عينان التمع فيهما اطمئنان راسخ عميق، ربما يأسٌ. وشاربان ناعمان ينسدلان

ليث الصندوق

كيفَ رجعت،
وليس بهذا العالم ما يغري؟
الناس سكارىٰ
يبكون وأعينهم في أكياس النايلون
كلمتهم جرفتها الأمطار مع البول إلىٰ الوديان
وعلىٰ الأكتاف بقايا عضّات كلاب

٢ ـ افتقاد شيء تافه

أذكر أني كنتُ قديماً أملك رأساً
وبه عينان كشاشات التلفاز تبثّانِ خفايا جسدي
وبه كانت أذنان
تلتقطان النجدة من أجرام منهارة
وعليه نَمَتْ كومة شوكٍ
أسماها العامة شعراً
وبه ثقبان يطشّان ـ إذا دوهمتُ ـ شراراً
وبه شيءٌ مثل اللّغم يسمّىٰ مخّاً
لم ينفعني يوماً
لكنْ خوفَ تفجُّرِهِ أبقيت عليه بلااستخدام

* * *

منذ زمانٍ كان علىٰ كتفي رأسٌ
يُقعي كالفأر علىٰ القمّة
لكن أين ترىٰ قد ضاع
أحلامي لم تجتزْ حَدَّ السُرَعِ القصوىٰ
قلبي لم يقفز فوقَ سقوف الجيران
أظفاري لم تُغمَدْ إلاّ في لحمي
مَزّقَ قدمي السَّيْرُ ولم أخلع خفّي
أكلت لحمي القملة لكن لم أنزع أسمالي
كيفَ إذن ضيّعت الرأس
وطيلة عمري ما حاربتُ سوىٰ نفسي؟
رئتي لم تتنشّقْ من حصّة غيري
لم أسرع في الركضِ مخافة أن يفلتَ عضوٌ منّي
لم أسرع في الأكلِ مخافة أن أبتلعَ لساني
حينَ أغنّي أمسكُ أسناني
خوفاً أن تقلعها آهاتي
وبُعيدَ اليقظة أستنزفُ أعواماً من عمري
كي أمحو آثارَ النوم

* * *

لا أدري أينَ أضعتَ أنا رأسي
كنتُ وثوقاً من خطواتي
تتهشّمُ أغصان الغابات علىٰ جسدي
والريح السوداء بظهري تفرك فروتها كي تزدادَ بياضاً
لكن حين خلوتُ لأملاكي أحسبها
فوجئت بأنّي لا أملك رأساً

* * *

هذي الدعوة أرسلها للناس جميعاً
من يعثرْ في الأرض علىٰ رأسٍ
فليبعثه علىٰ عنواني

برفق فوق زاويتي الفم. كان وجهاً سمحاً لازمه الذبول والوهن. وبصوت خائر قال: «أتشاهد ما يدور وما يحدث خارج البيت؟» أبعدتُ نظري عنه باتجاه فتحة الباب. قال: «لا عليك. انظرْ ولا تفهْ بشيء». دفعني الفضول للتطلّع عبر المنشور الضوئي المتسرّب من فتحة الباب. شاهدت الحركة كلها (يا تفاحة الثعلب المغبرة، افرنقعي، علامَ يحتبس الكلام وتُشوَّش الذاكرة، افرنقعي أو لتختفي إلى الأبد). هو ذا شاب مدجّج بسلاحه يخطو مسرعاً ويقف عند حافة الحفرة ويشير إلى الوراء. تقدم ثلاثة رجال يدفعون امرأة مكمّمة الفم، موثوقة اليدين، دفعوها بعنف نحو الحفرة وأهالوا عليها التراب. أهو صوت الأنين أم لذة الخوف من الموت؟ خُيِّل إليّ أنّي أرى حلماً وربما كابوساً. همس العجوز: «لا عليك، تناسَ ما تراه الآن، وتذكّر دائماً أنّك غريب. خذْ قدحاً آخر من الشاي إذا شئت». كان يلتفّ بمئزره الصوفي.. تساءلَ: «هل ذهبوا؟».. قلت: «نعم، ما عادوا هناك. لقد انتهوا». قال بصوته الواهن: «بالعكس، الآن بدأ عملهم».

- إذن هي الحمّى تعاودك من جديد.

التمّ وجه العجوز وأصبح مومياثياً واتّخذ لون الشمع الأصفر أو الأبيض الباهت. وإني غدوت مسؤولاً عن ذوبان قالب الشمع هذا أو اختفائه. لَعَنْتُ الحظّ في سرّي. فهل يمكنني الاختفاء الآن؟ فاجأني صوته يهمس لي: «إذا متُّ فلا توقظني أبداً، دعني أنَمْ يا عبد الله، منذ ثلاثة أيام وأنا أحلم حلماً واحداً، في كل مرة أجد نفسي معصوبَ العينين وأنا معلّقٌ من لساني إلى شجرة في صحراء ولا أحد يصدّ عني فئران آبار الملح. كانت تأكل أقدامي العارية وتنهش في جسدي النحيل. قلْ لي يا عبد الله أكابوس هذا أم تراه مجرد حلم؟ هل جئتَ تبحث عن أهلك في هذه المشكينو حقاً؟ أهي غايتك أم تراكَ تخفي أمراً آخر. قلْ لي: هل أنتَ متزوجٌ أم مازلت عازباً حتى الآن؟». اقتربتُ من العجوز لكي أدعه يسمع صوتي: «لم أتزوج بعد. ليس الزواج ما يقلقني، ربما العكس تماماً. ولكن جاءت تلك المشكلة وهدمت كل شيء. أعني الحرب، أخذت مني أحلى سنواتي، ثم هناك أمور يخشى المرء إن تحدث بها أن يفسدها».. صمتُّ إذْ رأيت حشداً من الرجال يدخلون المنشور الضوئي، يحملون ثلاث جثث جاءوا بها من هناك وألقوْها في الحفرة ذاتها، ثم هبطوا وراء الجثث، فيما بينها. هل يمكنها التآمر ومغادرة الحفرة سراً؟ لما نظرت إلى العجوز خُيل إليّ أني أُمضي ليلتي مع رجل نصف ميّت. لكنّ حركة خاطفة من إحدى يديه تشير عليّ بالامتناع عن التنصت. أبعدت عن خيالي فكرة موته، مع أن فكه الأسفل تدلى مرتخياً على صدره، وعيناه مفتوحتان تحدقان في سقف الحجرة ببلاهة لا مثيل لها. نهضت وأخذت من جرّة الماء جرعة رويت بها ظمأي. لم يكن الماء بارداً فحسب، بل إنه هبط إلى معدتي كسائل ثقيل أو دواء مرّ. أدركت صعوبة مغادرتي بيت العجوز خشية الاتهام بالباطل: أني أدفن أصحابي في الليل البهيم.. ولّما أوشكتُ على مناداته أو تحريك إحدى يديه تخيّلته ينهض من نومه ويصرخ بي، يعنّفني لأني تجاسرت على إيقاظه، فللشيوخ مزاجهم ورغباتهم. وحالما التويتُ في جلستي منعطفاً على أحد جانبيّ، رأيت خنجره ملقى إلى جانبه. خنجر فضيّ ذو مقبض نحاسي رُصّع غلافه بحبات من شذر وعقيق رخيص وخرز باهت وحبات أخرى من فصوص قرمزية اللون شائعة. أصغيت إلى أنفاسه. ليست ثمة حركة أنفاس، لكني أعرف ألاّ فرق كبيراً بين الموت والنوم العميق. هل أهرب بجلدي وأترك غايتي وأتخلى عن مبتغاي؟

فوجئت (خلال ذلك) بامرأة تدفع الباب وتدخل مُستفزّةً من وجودي. ألقت نظرة طويلة على حمزة الغريب، وعادت تتفرس بوجهي. كان باستطاعتي الصراخ لئلا تنقضَّ على أحدنا، غير أني لم أتجاسر وهي تخطو وسط الحجرة. وضعتْ صحناً كبيراً فارغاً وآنية للطعام وأقداحاً مختلفة مصنوعة من فخار وأخرى من نحاس. ركّزتْ أعواد بخور في الجدار وتركتْ قطعة قماش بيضاء عند أقدام العجوز. نظرت إليّ طويلاً، ثم هدرصوتهافجأة: «لماذا قتلته أيها الغريب؟ والآن لن تتمكن من الهرب مادمت قد دفعته إلى نهايته. آه لو قُدّر لك ألا تأتي لكانت الأمور قد تغيرت.. من الجائز أنهم سيدخلون عليك الآن. تدبرْ أمرك معهم. لا أُريد أن يموت أحد مغدوراً به. هل فهمت أيها الغريب؟ أم تراك لا تفهم، بعد، ما يقال لكَ وما يجري من حولك؟ أية ذريعة باطلة جئت تتعلل بها؟ أيها الغريب أتسمع صوت الكلاب، إنهم قادمون إليك!».

لّما غادرتني المرأة مندفعةً نحو الخارج كانت فرائصي ترتعد غضباً وحقداً. كيف تركتها تعنّفني؟ ولماذا غاب الكلام وتلاشت قدرتي على الدفاع عن نفسي؟ أين يختفي الصوت في حالة كهذه؟ هل يتخلى عني الواحد الأحد، الجبّار القيوم المتعالي؟ ترى ما الذي يجري في هذه البلدة الغريبة الأطوار؟ أيصحّ أن أمي تزوجت من رجل آخر قبل موت أبي؟ أتراه استنجد بي قبل موته كمداً من الخديعة والغدر به؟.. امتدّتْ يدي إلى خنجر حمزة الغريب ورفعته من مكانه. تساءلت من هؤلاء الذين سيدخلون الحجرة عليّ؟ دفعت الخنجر في حزامي. كان طرفه السائب ينغرز في بطني كأنه يتعمد الغوص في جسدي. كانت الضجة في الخارج تكبر وتتّسع حتى بدأت تطغى على المكان كله. وخيل إلي أن البيت محاطٌ بعشرات الرجال المدجّجين بالسلاح. هل أخطأت المجيء إلى هنا؟ اقتربتِ الأصوات أكثر وأوشكت الضجّة أن تذهلني بقوتها. أمسكت الخنجر بقوّة، إنّهم يقتربون من البيت وصوت الكلاب يطغى على كل شيء.

بغداد

٣٠ - آب - ١٩٩١